تجلّياتُ النزوعِ الذاتيّ في شعر القرن الرابع الهجري

أ.د. سعيـد عدنان المحنه
م.م. ستار عبد الله جاسم

توطئة:

عندما يكون الشعر نابعا من التجربة الذاتية الخاصة للشاعر تتجلى تلك الذات الشاعرة وتطفح عبر موضوعات كثيرة لا يمكن حصرها؛ لأن الإحساسات الإنسانية لا تقف عند حد بل تتسع سعة الحياة نفسها.

إن تجلي الذات Essence هو التعبير عن الذات فنيا وظهور خصائصها الإنسانية في التجربة الفردية لدى الفنان أو الأديب(1). وهذا الأمر سيؤدي إلى الكشف عن الطبيعة الشخصية لصاحب الأثر الفني(2). ففي الشعر يجب أن تكون القصيدة ملاذا تتجلى فيه ذات الشاعر وحاله الوجدانية التي تتلبسه وتملأ عليه أعماقه. الأمر الذي يقرب هذا اللون من الاستغراق في هموم الذات وانفعالاتها الخاصة إلى ما يشبه السيرة الذاتية المعبر عنها تحت وطأة انفعال يذيب الحوادث والخواطر ويلونها بلونه(3). ذلك أن الشاعر لا ينصرف فيه انصرافا جماعيا عاما بل يقتصر على ما تنزع إليه نفسه وما يعصف بوجدانه حتى يغدو الشعر صدى للنفس ومرآة للوجدان.

لكن ذلك ليس هينا، ويصعب أن يأتي تجلي الذات بخطّ افقي واحد بسبب من اختلاف الظروف، ومنافسة تيار آخر يدفع بالشاعر إلى الواقع الموضوعي، ويحثه على الارتباط بالشأن العام أو بتعبير أخر ((يلجم الفنان ويحمله على التخفيف من غلوائه، ووضع حدود أمام نزعاته الذاتية))(4). لهذا قد تتبدى للمتلقي بعض التناقضات التي يصعب عليه إيجاد مسوغات لها في مدى ثبات انسياب تيار الذاتية عند الشعراء.

ولقد تجلى شعر النزوع الذاتي في القرن الرابع الهجري عن انفعالات نفسية وقف عندها الشعراء فترجموها شعرا، يتخذ من الذات بؤرة له. ومن الضرورة الداخلية منطلقا ينطلق منه.

ومن أهم هذه التجليات :

. الذات المتعالية.

. الذات المغتربة

. الذات الأسيانة

. الذات الثائرة.

على أن هذه التجليات لا تحدها حدود قاطعة أو فواصل حاسمة بعضها عن بعضها الآخر وإنما كثيرا ما تتمازج وتتواشج وتنصهر في بوتقة الذات الشاعرة.

أولا: الذات المتعالية.

في أعماق النفس الإنسانية ميل إلى تأكيد الذات والحصول على منزلة عالية في الجماعة وهو ميل طبيعي شامل لأفراد المجتمع وطبقاته(5). بل ((إن هناك حاجة أساسية إلى تأكيد الذات))(6). ولكن هذا الميل قد يزداد سعة وزخما حتى يتحول إلى حال من الاعتداد الشديد بالذات أو ما يطلق عليه (حب الذات) أو الذات المتضخمة.

على أن حب النفس في حد ذاته ليس أمرا شائناً وإنما الشائن هو انصراف المرء بهذه الصفة عن التفكير أبدا في غيره(7)، فضلا عن انعدام وجود المسوغات الممهدة لمثل هذا الإحساس غير المسوغ وافتقاره إلى الأحوال التي تستدعيه وتكسبه الشرعية والقبول . إذ إن كثيرا من الصفات تكتسب الصدى الايجابي أو السلبي عبر الأحوال التي وجدت فيها ولعل شيئا من هذا يُستشف في قوله تعالى: {أَذِلَّةٍ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ أَعِزَّةٍ عَلَى الْكَافِرِينَ}(8)، إذ إن الإحساس بامتلاء الذات وعنفوانها مما يزين المؤمن. ويدعم شخصيته إذا كان بإزاء الكافرين؛ لأن هؤلاء يريدون سلب مثل هذه الشخصية عزتها وهيبتها. من ذلك ينبغي تحري الدقة والإلمام بأقصى ما يمكن الإلمام به من جوانب الشخصية ومحيطها قبل القدح بها ووصفها بالنرجسية والذات المتضخمة وصفات أخرى فيها تطاول وتعسف. وهذا الأمر يصدق على كثير من المجالات التي ترصد الذات فيها أخطارا وتتعرض إلى شتى ألوان الاضطهاد، تداهمها محاولات الإلغاء عندئذ تضطر الذات . عن طريق الوعي أو اللاوعي . إلى البحث عن سلوك آليات نفسية كي تثبت نفسها، وتقوي إرادتها وتصعد عن عزيمتها وتزيد من نفوذها بإزاء الآخر. ومن أهم هذه الآليات الاعتداد بالذات. وقد يكون ذلك من أجل بلوغ الكمال الذاتي حيث يحسب الفرد لنفسه حسابا كبيرا فيستعمل في رفعة شأنه وسائل العلو التي لها قيمة معتبرة(9). وهذا فهم صائب لمعنى رفعة القدر وعلو المقام إذ تنتقل الإحساسات من المُبدِع إلى المُبدَع.

إن الاعتداد بالذات . في درجاته المعقولة . أمر صحي؛ لأنه سوف يقي الشخصية من الترهل ويحصن الذات من الابتذال(10). وإن الحاجة ماسة إلى مثل هذه الذات عن طريق استثمارها في بناء الحياة وتطورها للوصول إلى أقصى ما يمكن من فائدة متوخاة كان من عواملها بروز الصوت والرأي والموقف.

وفي مجال الفن يكتسب الاعتداد بالذات أبعادا خاصة إذ إن الفنان ((يخضع للنزوع اللاشعوري من حيث كونه قوة دافعة لرغباته الطموحة إلى مبدأ إرادة التفوق في محاولة إثبات

الذات وتأكيد الوجود))(11). وهو أحد أسرار الإبداع في سائر صنوف الفن. ويزداد الأمر أهمية في فن الشعر الذي أدرك نقدنا القديم(12) خصوصيته في هذا المنحى فأباح للشاعر فيه أن يعتد بنفسه ويشدو بمناقبه.

وتجدر الإشارة إلى أن الشاعر الموهوب المعتد بذاته المحب لها المقدر لقيمتها كثيرا ما يصبح ذاتا لها خصائص وهوية يعمل ضمنها ويرى من خلالها الأشياء والوجود، ومن ثم يصير شخصية لها ملامح تطبع الناتج بالأثر وتترك في الناس التأثير(13)، ويكون لها ميسم خاص بها.

ولعل أبا الطيب المتنبي أكثر شاعر تجلت عنده الذات المتعالية في ابرز صورها منذ صباه وظلت مرافقة له في مراحل حياته كافة، ففي بواكير شبابه برز نزوعه الذاتي المتعالي كان يقول(14):

أيَّ مَحَـــــــــلٍّ أرْتَقـــــــــي؟ أيَّ عَظـــــــــيمٍ أتّقـــــــــي؟
وَكُـــلّ مَـــا قَـــدْ خَلَـــقَ اللّـــ ـــــهُ وَمـــــا لَـــــمْ يَخْلُـــــقِ
مُحْتَقَـــــرٌ فـــــي هِمّتـــــي كَشَـــــعْرَةٍ فـــــي مَفْرِقـــــي

فنحن بإزاء أفكار شابة دافقة بالحيوية ((هي أفكار اختبارية وافتراضات ذات مجسات سابرة لقدرة الجمهور على التحمل والقبول))(15)؛ لأن التلقي الأولي لهذه الأبيات يولد النفرة من الشاعر فهو قد واجه الجمهور بنزوع هوسي سخر فيه من كل محل وكل عظيم وعد كل ما خلق الله وما لم يخلق محسوبا بحسابات شعرة المفرق.

وفي بواكيره أيضا كان يقول(16):

أمِطْ عَنكَ تَشبيهي بمَا وَكَأنّما فَمَا أحَدٌ فَوْقي وَلا أحَدٌ مِثْلي

إنها ذات تعلو وتعلو مغتنمة نفثات الشباب؛ تحاول اكتساح كل شيء يقف حائلا دون تحليقها في أفق لا تسمح أن تنافسها ذات أخرى فيه، ولا ترضى بوجود ما يتفوق عليها أو حتى من يشابهها، فليس ثمة مجال في أن يقال: ما أشبهه بفلان أو كأنه فلان.

ويمضي أبو الطيب في الاعتداد بثراء ذاته والزهو بتنوع مناقبه على نحو مركز لا نظير له يقول(17):

أنَـا ابـنُ اللّقـاءِ أنَـا ابـنُ السَّـخاءِ أنـا ابـنُ الضِّـرابِ أنـا ابـنُ الطِّعـانِ
أنَـا ابـنُ الفَيـافي أنَـا ابـنُ القَـوافي أنَـا ابـنُ السُّـروجِ أنَـا ابـنُ الرِّعـانِ
طَويـلُ النِّجـادِ طَوِيـلُ العِمـادِ طَويـلُ القَنـاةِ طَويـلُ السِّـنانِ
حَديـدُ اللّحـاظِ حَديـدُ الحِفـاظِ حَديـدُ الحُسـامِ حَديـدُ الجَنَـانِ

إن هذا اللون من تكثيف النزوع الذاتي المتعالي يكشف عن توتر داخلي شديد يسعى الشاعر عبر إيراد كل ما يستطيع من مزاياه وتوسيع دائرة الاعتداد بذاته، فهو ربيب السمات المعتبرة من شجاعة وإقدام وكرم وصبر وأمانة وفكر وبأس وشعر... وما إلى ذلك، يسعى جاهدا إلى تقليل حدة ذلك التوتر والتخفيف من غلوائه.

أما النكبات التي تمر بأبي الطيب فلا يترك لها مجالا أن تفت في عضده، يقول(18):

أمِثْلـــي تأخُـــذُ النّكَبـــاتُ مِنْـــهُ وَيَجـــزَعُ مِـــنْ مُلاقـــاةِ الحِمـــامِ؟
ولـــو بَـــرَزَ الزّمـــانُ إلـــيَّ شَخصـــاً لخَضّـــبَ شـــعرَ مَفرِقِـــهِ حُســـامي
ومـــا بَلَغَـــتْ مَشـــيئَتَها اللّيـــالي ولا سَـــارَتْ وفـــي يَـــدِها زِمَـــامي
إذا امـــتَلأتْ عُيُـــونُ الخَيْـــلِ منـــي فَوَيْـــلٌ فـــي التّـــيَقّظِ والمَنَـــامِ

فذاته دائمة الشموخ، وعزيمته لا يستطيع الزمان الصمود بإزاء إقدامها، فهو يمتلك إرادة تمسك بزمام الأمور فلا تدع لحوادث الليالي والأيام فسحة للمناورة أو الوقوف بوجهه.

وللإحساس بتفرد موهبة الشعر مساحة كبرى في شعر أبي الطيب كثيرا ما يضمنها شعره ويؤكدها، مبينا الفارق الشاسع بين ما يمتلكه من أداء وموهبة وبين ما عليه البيئة الشعرية من مستويات لا يمكن أن تقارن بصوته المتفرد، يقول(19):

لم تَزَلْ تَسمَعُ المَديحَ ولكِنـ نَ صَهيلَ الجِيادِ غَيرُ النُّهاقِ

فأشعاره تنتسب إلى منابع الأصالة أما اشعار غيره فيعدها ضربا من النهيق في إشارة إلى أنها أصوات نشاز لا تحمل دلالات العطاء أو معاني الخصب التي يمثلها شعره. هذا الشعر الذي يخترق المحظور ولا يقر بوجود أية موانع، إنما هو في حال من الحركة الدائبة والنفاذ إلى آفاق شتى، يقول(20):

أنَا الذي نَظَرَ الأعْمَى إلى أدَبي وَأسْمَعَتْ كَلِماتي مَنْ بهِ صَمَمُ

هنا تصل درجة اعتداده بذاته الشاعرة إلى الذروة؛ إذ صار يراهن على أن إبداعه الشعري لشدة تميزه أبصره الأعمى وسمعه الأصم . وهذا ما يستحيل لذات شاعر آخر.

وكثيرا ما يضم تعاليه بذاته الشاعرة إلى مناقبه الأخرى التي يراها مكملة لمعنى الرجولة. يقول(21):

إذا صلتُ لم اتركْ مجالاً لفاتكِ وإن قلتُ لم اترك مجالاً لقائلِ

ويقول(22):

الخيل والليلُ والبيداءُ تعرفني والسيفُ والرمحُ والقرطاسُ والقلمُ

فالشعر لم يكن مسارا وحيدا اقتصر عليه إبداع الذات وتميزها ووقف عنده تعالي المتنبي وإحساسه بالتفوق وإنما هو حلقة في سلسلة من مظاهر التميز والتفوق والنبوغ يزاد على سمات الشجاعة والفروسية والإقدام والصبر والعلم، الأمر الذي يسبغ مزيدا من التكامل بين اعتداده بشخصه واعتداده بشعره.

ولا يقف تعالي أبي الطيب واعتداده بذاته عند الزهو بمزايا محددة أو مناقب معينة مهما بلغت من الكثرة أو الأهمية بل إن ذاته تواقة إلى الإطلاق لا الحصر في تبيان أفضليته على الجميع ومن ذلك قوله وهو في مجلس سيف الدولة(23):

سَيعْلَمُ الجَمعُ ممّنْ ضَمّ مَجلِسُنا بأنّني خَيرُ مَنْ تَسْعَى بهِ قَدَمُ

هكذا بدون استثناء لا من شخص ولا من صفة، لأن الاكتفاء بالتعالي بصفة واحدة أو مجموعة صفات أو الاقتصار بالتفوق على شخص أو فئة من الناس هذا كله لم يعد كافيا لإرضاء ذات المتنبي المرهونة بدواخل تحس بأن ثمة بونا شاسعا بين ما هو عليه من قدرات ومزايا ومواهب وبين ما عليه الآخر.

وإذا كان التعالي والإفراط في الاعتداد بالذات مما يفسد الأشياء ويقود العظماء إلى مزالق خطيرة، فإن الحال عند أبي الطيب لم تكن كذلك بل لعل هذه السمة قد أكسبت شخصيته وشعره مزيدا من الحيوية والتوهج لأنها لم تكن وليدة تصنع أو شعور زائف وإنما جاءت بسبب من عوامل أو مسوغات فرضتها ومهدت لنموها ومن أهم هذه العوامل:

1. الإحساس العميق بالتفوق والتميز على مستوى الشاعرية المتفجرة والفكر الوقاد والثقافة الواسعة والذكاء الحاد.. وما إلى ذلك.

2. قوة الشخصية وامتلاؤها وحال الاندفاع النفسي الكبير الذي يمنع التردد أو التراجع بل يحفز على التقدم والوثوب بصرف النظر عن أية تداعيات.

3. كان لاضطهاد البيئة وتعسفها رد ذاتي عند الشاعر جعله يزيد من احتضانه لذاته والإعلاء من شأنها وقدرها.

4. تقدير الشاعر الكبير لأهمية رسالته بوصفه ذاتا واعية فاعلةً لها مكانتها، وإدراكه ضرورة أن يرقى خطابه لمستوى رسالته.

5. ثقته العالية بذاته واحترامه لنفسه. جعله يوليها مكانة متميزة واهتماما خاصا.

6. ساعد على ذلك أن أبا الطيب قد شق طريقه بنفسه ولم يتكل على أمر خارج ذاته، فكان اعتماده على نفسه مسوغا للإعلاء من شأنها.

7. يبدو أن المتنبي قد لمس نتيجة هذا اللون من التجلي في الانجاز، وأثره الايجابي فيما يتوخى من مآرب لأن ذلك ما يفهمه الآخر.

8. إن الشاعر قد ضاق ذرعه بكثرة ما ألفاه حوله من مظاهر الخنوع والخضوع وشيوع أنماط الاستكانة والتقهقر.

وكان لأبي فراس الحمداني نصيب وافر من تعالي الذات، إذ يرى أنه شخصٌ يمثل العز لقومه وأن همته هي الكبرى في قومه على الرغم من كونه أصغرهم سنا، يقول(24):

تَمَنَّيْـــتُمْ أنْ تَفْقِـــدُوني وَإنّمـــا تَمَنَّيْـــتُمُ أنْ تُفْقِـــدُوا العِـــزَّ أصْـــيَدَا
أمـا أنـا أعلـى مـنْ تعـدُّونَ همّـةً ؟ وَإنْ كنـتُ أدنَـى مَـن تَعُـدّونَ موْلـدَا

ويستمر إحساس الذات لدى أبي فراس بامتلاك زمام الصدارة في سمات كثيرة، يقول(25):

ألســـتُ أمـــدَّهمْ لـــذويَّ ظـــلاً وأوســـعَهم لـــدى الأضـــياف جفنـــهْ
وأثبـــتهم لـــدى الحـــدثان جأشـــاً وأســـرعهم إلـــى الفرســـان طعْنَـــهْ
ألســـتُ أقـــرَّهمْ بالضـــيفِ عينـــاً ألســـتُ أمـــرَّهمْ فـــي الحـــربِ لهنـــهْ

فهو في قومه أمدهم وأوسعهم وأثبتهم وأسرعهم وأقراهم وأمرهم وهذا التتالي في ذكر المناقب يفصح عن ذات مشغوفة بالحديث عن نيلها قصب السبق في مختلف السمات والمزايا من رحابة صدر وكرم وشجاعة وإقدام وكل ما من شأنه أن يؤهله ليكون قمرا منيرا إذا أظلم ليل قومه يقول(26):

سَيَذْكُرُني قَوْمي إذا جَدّ جدّهُمْ وفي الليلةِ الظلماءِ يفتقدُ البدرُ

وهذا ما يعزز شعوره باستحالة أن يملأ أحد الفراغ الذي يخلفه غيابه ولاسيما في ظروف أسره مما يولد لديه مشاعر ذاتية خاصة، يقول(27):

إنّي أغَارُ عَلى مَكَانيَ أنْ أرَى فيهِ رجالاً لا تسدُّ مكانِي

وهو يشير إلى إحساسه الذاتي بمدى جسامة المهمة الملقاة على عاتقه وبأهمية الدور المنوط به وبأنه الأجدر والأكفأ للقيام بمثل هذه المهمة وبأداء مثل هذا الدور.

وتمر على أبي فراس لحظات يزداد فيها تعالي ذاته حتى يتحول إلى أنانية جامحة لا تنظر إلا إلى ما تحوزه ولا تأبه إلا بما تنال، يقول(28):

معللتي بالوصلِ والموتُ دونهُ إذا مِتّ ظَمْآناً فَلا نَزَل القَطْرُ

إن الشاعر هنا لم يستطع كتمان ما يجيش في أعماقه أو السيطرة على تدفق أحاسيس خاصة كانت تئن وتضطرب تحت وطأة عذاب الأسر المادية والمعنوية وتحاول أن تجد ملاذا في هذا الإحساس الطاغي بالأنا وهذه الصرخة الملأى بالأثرة.

ومن الأهمية بمكان الإشارة إلى أن اعتداد أبي فراس بنفسه قبل حقبة أسره كان دون فخره بقومه أو بعبارة أخرى الفخر الفردي كان ذائبا في الفخر الجماعي لكن هذه الحال تغيرت عندما داهمته محنة الأسر إذ صار الأمر إلى النقيض تماما إذ جعل من ذاته محورا للمكرمات والفضائل وذلك من أجل تسليط الضوء على نفسه كي لا تصبح في أتون النسيان، وصونا لها من القدح والتجريح.

وإذا كان أبو فراس يزهو بنفسه فيرى أنه بدر في ليالي قومه المظلمة فإن الشريف الرضي لا يغادر هذا الوصف فيرى أن مقامه مقام البدر اعتدادا بذاته وتعاليا بشخصيته يقول(29):

وإنَّ مقـــامَ مثلِـــي فـــي الأعـــادي مُقَـــامُ البَـــدْرِ تَنْبَحُـــهُ الكِـــلابُ
رَمَـــوْني بِـــالعُيُوبِ مُلَفَّقَـــاتٍ و قـــد علمـــوا بـــأنّي لا أعـــابُ
وأنّـــي لا تدنّســـني المخـــازي وأنّـــي لا يروّعنـــي السّـــبابُ

فقد بلغت ذاته من القوة والمكانة العالية ما لا يضر معها ارتفاع أصوات المناوئين أو كثرة تلفيقهم أو نيلهم منه فهو شخص لا يمكن أن يُعاب، وهذا المعنى قريب من قول المتنبي(30):

مَا أبعدَ العيبَ والنقصانَ عن شرفي أنا الثُّريا وذانِ الشّيبُ والهَرَمُ

والشريف الرضي . كحال أبي الطيب . لا يرضي اعتداده بذاته الاقتصار على إظهار تفوقه في جانب أو مجموعة جوانب يقول(31):

وجاذَبني على العَلْياءِ قومٌ وما عَلِموا بأنَّ جميعَها لِي

إذن نحن بإزاء ذات تريد الاستحواذ على كل سمات المعالي، بل هي تزهو وتتباهى بامتلاكها جميع تلك المناقب والسمات.

والشريف الرضي ليس بمعتمد . في اعتداده بنفسه . على منصب كنقابة الطالبيين أو أية حال خارجية إنما شعوره العنيف بعظمته وتفوقه نابع من ثقته بقدراته الذاتية وإيمانه بما يحمل من طاقة كبرى وفعل خلاق، الأمر الذي يؤهله ليكون في مصاف العظماء سواء أكانت له مناصب أم لم تكن، يقول(32):

فلَئن صُرِفتُ فلَستُ عن شَرَفِ العُلى ومقاعـــد العظمـــاءِ بالمصـــروفِ
وَلَـــئِنْ بَقيـــتُ لَكُـــمْ فـــإنّي وَاجِـــدٌ أبـــداً أقـــوّم مـــنكم بـــأَلوفِ

ونلمس هذا النزوع إلى الذات المتضخمة عند الشاعر ليس في خطابه العام فحسب بل في خطابه لقومه وبني عمومته إذ إن علاقته بهم قد شابها بعض التوتر، فنراه ينسب الأفعال العظيمة إلى نفسه ومن ذلك قوله لهم(33):

أرُونـــي مَـــنْ يَقُـــومُ لَكُـــمْ مَقـــامي أرُونـــي مَـــنْ يَقُـــولُ لَكُـــمْ مَقَـــالِي
وَمَـنْ يَحمـي الحَـرِيمَ مِـن الأعـادي ومَـنْ يشـفي مـن الـداءِ العضـالِ؟

إذن هو رأس قومه في الأفعال والأقوال ولا يمكن لهم أن يستغنوا عن رعايته لهم ودفاعه عنهم وشجاعته التي يذود بها عن حياضهم، وقيامه بكل ما من شأنه أن يقيهم ويدفع الأذى عنهم.

ويجدر القول هنا أن ما ذكرناه من الاعتداد بالذات عند هؤلاء الشعراء لم يكن جزءا من الشأن العام في استعادة معاني الفخر، وإنما هو تعبير عن تجربة ذاتية عاشها الشعراء وانفعلوا بها وضمنوها أشعارهم.

ثانيا: الذات المغتربة:

الاغتراب في اللغة هو الابتعاد والنزوح(34)، أما في الاصطلاح فهو شعور الفرد بالعجز عن التلاؤم والإخفاق وعدم التكيف مع المحيط(35)، ومن ثم إحساسه بأن العالم كله سجن أقحم فيه مرغما فكبله بقيود واشعره بأنه غريب بين أهله وناسه(36)، بل هو غريب أينما حل وحيثما ارتحل.

إن تداول مصطلح (الاغتراب) في العلاقات الإنسانية إنما يدل على الإحساس الذاتي بالغربة(37)، وان هذا الإحساس وما يكتنفه من مشاعر ورؤى ليس أمرا سلبيا وإنما هو . بحسب وصف الدكتور طه حسين . ((أقوى دليل على حيوية الذات وقوة نبضها))(38)، ولا سيما إذا وظف ذلك في مجال الفنون والآداب وبخاصة فن الشعر إذ عادة ما يتولد الاغتراب عند الشاعر إذا كان يحمل رؤى وأفكارا وتطلعات متميزة يقصر الواقع عن الالتحاق بها أو التعاطي معها. ومن ثم يتكاثف الشعور بالتفرد والوحدة والعجز عن التجاوب مع المجتمع بسبب من حصول شرخ في العلاقة الفاعلة بين الأنا والآخر.

ولعل من أبرز تداعيات الاغتراب عند الشعراء تجلي أحوال نفسية منها الاكتئاب والقلق والحزن ولوم الذات والشعور بالوحدة والفراغ النفسي وافتقاد الأمن وغلبة التشاؤم.. وما إلى ذلك حيث ينزع الشاعر إلى ذاته ويغترب عمن حوله. وتتمثل هذه الحال فيما يصدر من نتاج الشعراء، فيخرج شعرهم منصهرا بدواخل ذواتهم، وهي سمة تتعمق عند الشعراء ذوي العاطفة القوية والإحساس المرهف فإنهم ((يجدون أنفسهم يحتمون من الجروح التي قد يصيبهم بها الآخرون

فيستمتعون بذواتهم ويتلذذون بالتيار الدافق في أنفسهم))(39)، لأنهم لم يجدوا من يشاركهم همهم أو يشعر به.

ويعد أبو الطيب المتنبي في طليعة الشعراء الذين واكب الاغتراب حياتهم وشعرهم على السواء، وإننا لنلمس إحساسا حادا بالاغتراب عند أبي الطيب مع بدايات تجربته الشعرية، فقد كان ((انعدام الرابطة الاجتماعية بالناس يشعر المتنبي بأنه في عالم يبدو وكأنه منى))(40). وعبر عن هذا الإحساس في بواكير شعره. ومن ذلك قوله(41):

فُـــؤادٌ مـــا تُسَـــلّيهِ المُـــدامُ وعُمْـــرٌ مثـــلُ مـــا تَهَـــبُ اللّئَـــامُ
ودَهْـــرٌ ناسُـــهُ نـــاسٌ صِـــغارٌ وإنْ كانـــتْ لهـــمْ جُثَـــثٌ ضِـــخامُ
ومـــا أنـــا مِـــنْهُمُ بـــالعَيشِ فـــيهم ولكـــنْ مَعـــدِنُ الـــذّهَبِ الرَّغـــامُ

فأبو الطيب . هنا . يشير إلى انفصام عرى الترابط بين ذاته وبين المجتمع، الأمر الذي يشجي فؤاده ويقصر عمره لأنه يحس بتفوقه على أبناء مجتمعه لهذا ينكر وجوده ضمن أهل عصره مشبها إياه بوجود الذهب مع التراب للدلالة على ما يراه من وجود فارق شاسع بين غنى شخصيته وتميزها وبين الواقع البائس الذي يحيط به، من هنا تبدأ معاناة اغترابه التي ألح على تأكيدها في شعره، حتى شبه شخصيته بالأنبياء في قوله(42):

مـــا مقـــامي بـــأرضَ نخلـــةَ إلا كمُقـــامِ المَســـيحِ بَـــينَ اليَهُـــودِ
أنَـــا فـــي أُمّـــةٍ تَـــدارَكَهَا اللّـــ ـــهُ غَريـــبٌ كصَـــالِحٍ فـــي ثَمـــودِ

لأنه أحس غربة شديدة وتميزا كبيرا أقضتا مضجعه وأتعبتا فؤاده فلم يجد ما يعبر به عن تلك الغربة وذلك التميز أكثر بيانا من حال الأنبياء في مجتمعات لم تقدرهم حق قدرهم.

وثمة مرحلة في حياة أبي الطيب قد بلغ اغترابه فيها ذروته وكانت تلك مرحلة اقامته في مصر إذ كانت ((بداية النزول نحو الوعي بالفشل المطلق في تجربة البحث عن تحقيق طموحات المجد))(43). فقد أدرك الشاعر بعد مضي بعض الوقت ان مصر غدت سجنا كبير لا يطيقه وأن قيودا كثيرة قد فرضت عليه، ولعل في الأبيات الآتية وصفا لحاله في مصر يقول(44):

أقَمْـتُ بـأرْضِ مِصـرَ فَـلا وَرَائـي تَخُـبُّ بـيَ الرّكـابُ وَلا أمَـامي
وَمَلّنـيَ الفِـرَاشُ وَكـانَ جَنبـي يَمَـلُّ لِقَـاءَهُ فـي كُـلّ عـامِ
قَليـلٌ عَائِـدي سَـقِمٌ فُـؤادي كَثِيـرٌ حَاسِـدي صَـعْبٌ مَرَامـي

فهو لم يعتد على هذه الحال التي تشعره باغتراب كبير، نتيجة الاقامة المحددة وسقم قلبه وجوارحه وقلة عواده وكثرة حاسديه، ومما ضاعف من شدة تلك الهموم عليه أن الغاية التي ينشدها والهدف الذي يطلبه أمر صعب المنال بعيد الحدود بل هو مما ليس بمقدور الزمن ان يبلغه للمتنبي بل لنفسه، الأمر الذي جعله يعيش حال اغتراب عن أهله ووطنه ونديمه وكأسه وسكنه، يقول(45):

بِـــمَ التّعَلّـــلُ لا أهْـــلٌ وَلا وَطَـــنُ وَلا نَـــــديمٌ وَلا كـــــأسٌ وَلا سَـــــكَنُ
أُريـــدُ مِـــنْ زَمَنـــي ذا أنْ يُبَلّغَنـــي مَـــا لَـــيسَ يبْلُغُـــهُ مـــن نَفسِـــهِ الـــزّمَنُ

إن هذا بحسب ما يقول أبو حيان التوحيدي ((وصف رجل لحقته الغربة، فتمنى أهلا يأنس بهم ووطنا يأوي إليه، ونديما يحل عقد سره معه، وكأسا ينتشي بها، وسكنا يتوادع عنده))(46)، ولكن هيهات نوال ذلك ما دام في هذه الاقامة التي هي أشبه بالسجن في مصر.

لقد كان أبو الطيب يعاني أيما معاناة من الإحساس بفقدان من هو قريب لذاته أو قريب لنفسه ومن ثم اشتد اغترابه حتى بات لا تؤثر فيه المدام ولا الاغاريد يقول(47):

أصَـــخْرَةٌ أنَـــا؟ مـــا لـــي لا تُحَرّكُنـــي هَـــذِي المُـــدامُ وَلا هَـــذي الأغَارِيـــدُ
إذا أرَدْتُ كُمَيْـــتَ اللّـــوْنِ صَـــافِيَةً وَجَـــدْتُهَا وَحَبيـــبُ الـــنّفسِ مَفقُـــودُ

ولكن اغتراب المتنبي هذا لم يفت في عضده ولم يقده إلى الاحتماء بمحراب العزلة، أو الهرب من العالم، أو اللجوء إلى الرضوخ والاستكانة، أو الركون إلى الدعة والراحة والهدوء وإنما كان اغترابه اغتراب المواجهة والتحدي، كان اغتراب السعي الدائب إلى التخطي والتجاوز والتغيير.

أما أبو فراس الحمداني فقد كان يعاني من وطأة الإحساس بالاغتراب في مرحلة سابقة لأسره إذ إن وجوده بين أهله وقومه لم يحمل أبسط مفردات المواءمة بل كان يشعر بذاته غريبة وهم حوله يقول(48):

غَرِيبٌ وَأهْلي حَيْثُ مَا كانَ ناظِري وَحِيدٌ وَحَوْلي مِن رِجالي عَصَائِبُ

إن وطأة هذا الإحساس تكمن في صدوره عن معاناة داخلية عصفت بوجدان الشاعر إذ وجد نفسه بإزاء مفارقة بين ما هو ظاهر من أحوال من جهة وبين ما تشعر به ذاته من جهة أخرى حيث يرى أهله وقومه حوله يبصرهم بناظره ولكنه يحس في أعماقه مرارة الوحدة وحرقة الاغتراب.

وإذا كانت فروسية أبي فراس وبطولته وكثرة مشاركاته في المعارك مما يقلل من وطأة الإحساس بهذا الاغتراب فإن تجربة أسره قد ولدت لديه اغترابا أشد ألما وأكثر مرارة جراء فقدانه لممارسة فروسيته وما اعتاده من مزايا ومناقب وقد عبر عن ذلك في قوله واصفا حاله في الأسر(49):

يرعـــــى النجـــــوم السّـــــائرا تِ مـــــن الطّلـــــوعِ إلـــــى الأفـــــولِ
فقـــــد الضّـــــيوفُ مكانَـــــهُ وبكـــــاهُ أبنـــــاءُ السّـــــبيلِ
واستوحشـــــتْ لفراقـــــه يـــــومَ الـــــوغى ســـــربُ الخيـــــولِ
وتعطّلـــــتْ ســـــمرُ الرّمـــــا حِ وأغمـــــدتْ بـــــيضُ النّصـــــولِ

إنّ شدّة هذا الاغتراب أبعدته عن النوم فيظل ساهرا ليله يراقب نجومه طوال ظهورها وهو يعبر عن تأثره وشعوره بأن الضيوف سوف يفتقدون قراه وأن الفقراء سوف يبكون عطاءه حتى أن أجواء المعارك وما تشتمل عليه من عدة وأسلحة قد أحسّت الوحشة بإزاء غيابه لأنه الفارس الشجاع الذي لا يشق له غبار في مختلف الميادين، وهنا أراد الشاعر أن يقول إنه ليس وحده من يشعر بالاغتراب بل أن هناك شعورا متبادلا يكمن في ساحات المعارك وما تشتمل عليه وفي ما تحسه الناس بفعل مآثره وما يتميز به.

ولا يخفى أن الأسر يسلب الإنسان شيئا عزيزا هو حريته، وإطلاق سراح إمكاناته وإن ذلك مما يسبب للشاعر شعورا مضنيا بالاغتراب، ومن ثم القلق والتوتر والاضطراب يقول(50):

وكيف وفيما بيننا ملكُ قيصرٍ وللبحرِ حولي زخرةٌ وعبابُ

إن هذا الإحساس بالبعد عما يحب من ممارسات اعتادها ولد في نفسه قلقا عارما نستشفه من توظيفه الإيحاء المكاني للدلالة على بعده عن وطنه وعدم استقراره، ويمكن أن يستشف ذلك من توظيف لفظة البحر(51)، وما به من أمواج متلاطمة وصخب واضطراب وذلك كله كان يدلّ على ما في ذات الشاعر.

ولقد حدت شدة الإحساس بالاغتراب ببعض الشعراء إلى أن يتمنى الابتعاد عن المجتمع إلى أقصى الصحراء كي يصبح بمنأى عن معاناة وجوده مع أناس لا ينتمون إلى عالم ذاته، يقول أبو إسحاق الصابي(52):

ألا ليتنـــي حيـــثُ أنثـــوت أفـــرخ القطـــا بأقصـــى محـــلٍّ فـــي الفـــلاة ســـحيقِ
أخـــو وحـــدةٍ قـــدْ آنســـتني كـــأنَّني بهـــا نـــازلُ فِـــي معشـــرِي وفريقِـــي
فـــذلك خيـــرٌ للفتـــى مـــن ثوائـــهِ بمســـبعةٍ مـــن صـــاحبٍ ورفيـــقِ

وهذا المعنى قريب من قول الشريف الرضي(53):

كَمْ وَحدَةٍ هيَ خَيرٌ مِنْ مُصَاحَبَةٍ يُنَسى الجميعُ ويغدو الفذُّ مذكورا

وإذا كان أبو الطيب المتنبي يشكو من عدم وجود السكن فإن الشريف الرضي يعاني أيضا من إحساسه بعدم وجود الصديق أو السكن، يقول(54):

يا دارُ قَلّ الصّديقُ فيكِ فَما أحُسّ وُدّاً وَلا أرَى سَكَنَا

إذن نفسه تفتقد السكن والود، ولم يكن إحساسه هذا وليد مرحلة خاصة في حياته إنما طوال حياته كان في حال اغتراب وذلك بسبب من فضله وتميزه لذلك لم يبق له صديق أو قرين إنما يفتقد هؤلاء في أوقات الشدائد والخطوب. يقول(55):

فَمـا لِـيَ طُـولَ الـدّهرِ أمشِـي كَـأنّني لفَضْـــلِيَ فـــي هَـــذا الزّمَـــانِ غَرِيـــبُ
إذا قُلــتُ قَــدْ عَلّقــتُ كَفّــي بصَــاحبٍ تعـــــودُ عـــــوادٍ بيننـــــا وَخُطُـــــوبُ

فالشاعر هنا يتساءل في ذهول وحيرة عن سبب هذه الغربة النفسية التي ترافقه طيلة الدهر على الرغم من فضله ويعجب من سرعة فقدانه للأصحاب والأصفياء وتحول الصحبة إلى مجافاة وخصام.

على أن اغتراب الشريف الرضي يزداد عنفا ويشتد ألما حين يصل إلى مرحلة يرى فيها أن نفسه قد أصبحت غريبة عليه فيوازن بين هذه الحال وحال المجافاة مع العالم الخارجي، قائلا(56):

أرومُ انتصـــافي مـــن رجـــالٍ أباعـــدٍ وَنَفسِـــيَ أعـــدَى لـــي مـــن النّـــاسِ أجمَعَـــا
إذا لَـمْ تَكُـنْ نفـسُ الفتـى مِـنْ صـديقِهِ فَــلا يُحْــدِثَنْ فــي خِلّــةِ الغَيــرِ مَطمَعَــا

إذن هو لا يلقي باللوم على الناس من حوله فحسب وإنما يرجع إلى ذاته ويحملها جزءا كبيرا مما هو عليه من الإحساس بالاغتراب وضعف التواصل الذاتي مع الجماعة. وعندما يشعر المرء بأن ذاته قد أضحت غريبة عليه فإنه قد وصل إلى أقصى درجات الاغتراب.

ثالثا: الذات الاسيانة:

يُعد الأسى والحزن حالا شعورية مهمةً من أحوال التعبير الحقيقي عن الوجدان، ومحورا أساسا في الكشف عما تضمره الذات الشاعرة.

ولابد من الإدراك أن الحياة لدى الإنسان ذي الإحساس العالي كثيرا ما تكون مؤلمة، والشاعر الحقيقي أرهف الناس إحساسا وأكثرهم حرارة في الشعور. لذلك يكون خلق الشعر عنده نابعا من ذات اسيانة دائمة التوجع والألم . على أن ألم الشاعر ليست له قيمة خاصة في حد ذاته، وإنما تكمن قيمته في أنه يمكن الشاعر من فهم الحياة الإنسانية(57)، وبذا يكون مادة خصبة في ميدان الأدب والفن.

ولقد كان للأسى والحزن الصدارة في نزوع كثير من شعراء القرن الرابع الهجري إلى ذواتهم إذ إن هؤلاء الشعراء قد احسوا العناء في أعماقهم وأن ((اقدر الناس تعبيرا عن الشقاء من كان الشقاء في نفسه))(58)، ولاسيما عند أبي الطيب المتنبي، فقد كان يملؤه شعور بالأسى والألم منذ

نعومة اظفاره في الكوفة إلى حين مقتله في دير العاقول، ولم يكن الحزن عند المتنبي حزن الهموم الصغائر بل يتجاوزه إلى مرحلة الادراك العميق لمأساة الحياة ولقد عبر عن ذلك في مرحلة مبكرة من حياته، يقول(59):

أحْيَا وَأيْسَرُ مَا قاسَيْتُ ما قَتَلا وَالبَينُ جارَ على ضُعْفي وَمَا عَدَلا
وَالوَجدُ يَقوَى كما تَقْوَى النّوَى أبداً وَالصّبرُ يَنحلُ في جسمي كما نَحِلا

فالحزن طاغ عليه لأن أيسر همومه تسبب القتل فكيف بأشدها، لأن ذات الشاعر في حال فراق مع مرادها، هذا الفراق الذي يجور عليه يوما بعد آخر. فيزيد حزنه ويقوى أساه فيضعف صبره وينحل جسمه . فضلا عن المعاناة التي يكابدها لكثرة ما رأى من أذى لا يمكن احتماله، يقول(60):

واحتِمالُ الأذَى ورُؤيَةُ جانِيهِ غِذاءٌ تَضْوَى بهِ الأجسامُ

وهذا إحساس ذات رهيفة ليس باستطاعتها إلا أن تشعر بألم كبير نتيجة تفاعلها مع الأحداث وإحساسها العالي بها.

إن شعور المتنبي بسلبية الحياة أدى إلى هيمنة الاسى والحزن على ذاته التي يطفح حزنها حتى في بعض أوقات السرور التي تمر بها يقول(61):

كَذا الدّنْيا على مَن كانَ قَبْلي صُروفٌ لم يُدِمْنَ عَلَيْهِ حَالا
أشَدُّ الغَمّ عِنْدي في سُرورٍ تَيَقّنَ عَنهُ صاحِبُهُ انْتِقالا

فهو يعي أن صروف الدنيا لا تديم الأحوال، لذلك لا يهنأ في سرور يمر به لأنه يترقب وقت زواله، وهذا الترقب يفقده إحساسه بالسرور.

ولم يغادر الأسى والحزن ذات أبي الطيب حتى في أثناء إقامته عند سيف الدولة على الرغم من كون تلك الحقبة قد واءمت نفس أبي الطيب إلى حد كبير هذا الحزن الذي عبر عنه في قوله(62):

رَماني الدّهرُ بالأرزاءِ حتى فُؤادي في غِشاءٍ مِنْ نِبالِ
فَصِرْتُ إذا أصابَتْني سِهامٌ تكَسّرَتِ النّصالُ على النّصالِ
وهانَ فَما أُبالي بالرّزايا لأنّي ما انْتَفَعتُ بأنْ أُبالي

فالأبيات تفصح عن أن هناك مصائب قد اطبقت على قلب الشاعر فلم تترك له منفذا للفرح أو السرور، بل إن تتالي تلك الرزايا قد صيّرها كالسهام الكثيرة التي لا يسعها المكان المسددة إليه فيقع بعضها فوق بعضها الآخر. وهذا التعبير إنما يكشف عن شعور كبير باللوعة والحزن.

على أن أعمق إحساسٍ بالأسى والألم والاكتئاب قد عاشه المتنبي كان في أثناء إقامته في مصر بعد رحيله عن بلاط سيف الدولة لأن فراقه لسيف لدولة لم يكن بسبب من انقطاع روابط الود وإنما كان بفعل قوة نفوذ الحساد والمناوئين الذين كانوا يكيدون للمتنبي عند سيف الدولة، لذا فإن الأذى والجراح والسهام التي كابدها في مراحله السابقة قد تحولت إلى موت تمناه الشاعر للخلاص من الحال التي وصل إليها. وقد عبر عن ذلك في أولى قصائده في مصر قائلا(63):

كفى بكَ داءً أنْ ترَى الموْتَ شافِيَا وَحَسْبُ المَنَايَا أنْ يكُنّ أمانِيَا

تَمَنّيْتَهَا لمّا تَمَنّيْتَ أنْ تَرَى صَديقاً فأعْيَا أوْ عَدُواً مُداجِيَا

إذن أصبح الشعر هنا تعبيرا صادقا عن الذات الشاعرة التي تعد الموت شفاء، وإنها تقر بألم كبير. أن الحال التي ابتليت بها لا يمكنها الخلاص منها إلا بالموت لذلك هي تتمناه وبذا يبلغ الاكتئاب مداه فـ ((حين تكون المنية امنية تكتسب الكآبة اقسى درجاتها وأعنف صورها))(64). وهذا ما كانت عليه حال أبي الطيب في بداية إقامته في مصر.

وتستمر مأساة أبي الطيب في مصر وتأخذ أبعادا موغلة في الحزن والاسى. وإن ((الغناء الحزين الذي انشده أبو الطيب في مصر كان دليلا على أن الرجل أخذ يتجه اتجاها جديدا يقوم على النظر في الحياة والاحياء قوامه تجربة مرة وخبرة واسعة))(65).

وخير ما يدل على ذلك قصيدتاه اللتان لم ينشدهما كافورا ومطلع الأولى(66):

بِمَ التّعَلّلُ لا أهْلٌ وَلا وَطَنُ وَلا نَديمٌ وَلا كأسٌ وَلا سَكَنُ

أما الأخرى فمطلعها(67):

صَحِبَ النّاسُ قَبلَنا ذا الزّمَانَا وَعَنَاهُمْ مِن شأنِهِ مَا عَنَانَا

ففي هاتين القصيدتين تتجلى ذات أبي الطيب في تعبير خاص عن نزوع ذاتي نتيجة حال نفسية مر بها في مصر، فأصبح الشعر ينثال على لسانه معبرا عن حزنه مقرونا بفكره ورؤيته العميقة للحياة التي صقلتها تلك التجربة، ونلمس ذلك في أبيات كثيرة في مثل قوله(68):

لا تَلْقَ دَهْرَكَ إلاّ غَيرَ مُكتَرِثٍ مَا دامَ يَصْحَبُ فيهِ رُوحَكَ البَدنُ

فَمَا يُديمُ سُرُورٌ ما سُرِرْتَ بِهِ وَلا يَرُدّ عَلَيكَ الفَائِتَ الحَزَنُ

مِمّا أضَرّ بأهْلِ العِشْقِ أنّهُمُ هَوَوا وَمَا عَرَفُوا الدّنْيَا وَمَا فطِنوا

تَفنَى عُيُونُهُمُ دَمْعاً وَأنْفُسُهُمْ في إثْرِ كُلّ قَبيحٍ وَجهُهُ حَسَنُ

إننا بإزاء تعبير متميز عن تجربة غنية عاشها الشاعر فصاغها شعرا ينبع من ذات قد اكسبتها الأيام والتجارب مزيدا من النضج والخبرة فغدت تبصر . بعين ثاقبة . ما يمكن أن تؤول إليه الأمور وما يجب أن تكون عيه النفوس سواء في لحظات السرور ام في أوقات الحزن فلِمَ السرورُ وهو ليس بدائم؟ ولِمَ الحزنُ وهو ليس بحل؟ وهذا ما يفضي إلى إحساس الشاعر بسلبية الحياة وعدم الجدوى من تفاعل مشاعر الإنسان بأحداثها، لذلك على المرء ان يعي الدنيا وأن يفطن لأعماق الأمور ولا تشغله الظواهر عن جواهر الأشياء.

والمتنبي لا يكتفي بذلك بل يضرب مثلا بمعاناة من مضى من الناس من الدنيا، يقول(69):

صَحِبَ النّاسُ قَبلَنا ذا الزّمَانَا وَعَنَاهُمْ مِن شأنِهِ مَا عَنَانَا
وَتَوَلّوْا بِغُصّةٍ كُلّهُمْ مِنْـ ـهُ وَإِنْ سَرّ بَعْضَهُمْ أحْيَانَا
رُبّمَا تُحسِنُ الصّنيعَ لَيَالِيـ ـهِ وَلَكِنْ تُكَدّرُ الإحْسَانَا

فالشاعر يرى أن حوادث الزمان تجعل الناس في معاناة دائمة وتقضي على بعض لحظات السرور التي قد تمر بها النفوس؛ لأنه تيقن أنه سرور عارض لا يلبث أن يزول ومما يزيد من الإحساس بالأسى عند الشاعر أن بعض الناس يعمل على إعانة الدهر في نوائبه. يقول(70):

وَكَأنّا لَم يَرْضَ فينَا برَيْبِ الـ ـدّهْرِ حتى أعَانَهُ مَنْ أعَانَا
كُلّمَا أنْبَتَ الزّمَانُ قَنَاةً رَكّبَ المَرْءُ في القَنَاةِ سِنَانَا

فالمحن والرزايا التي يرمي بها الدهر كأنها لم تُرضِ بعض الناس، فصار يعين الدهر في ذلك، ولاشك في أن هذه القصيدة،وُلدت نتيجة طول تفكير الشاعر في قصته عند سيف الدولة. وكأنها خطابٌ لذاته فغدت تأملا عميقا يرقى إلى مصاف التفكير الفلسفي.

وهنا يسعى الشريف الرضي إلى تأكيد أن سجن الروح في الجسد هو السجن أو القيد الذي تتضاءل بإزائه العذابات الأخرى وتهون في مقابله كل القيود، لأن الروح يجب أن تنطلق في آفاق التضحية والعطاء وكل ما يسمو بالإنسان.

والرضي يريد من الإنسان أن يسعى إلى توظيف حريته التوظيف الأمثل، يقول(71):

مَقَامُ الفَتَى عَجزٌ على ما يَضِيمُهُ وَذُلٌّ الجَرِيءِ القلبِ إحدى العجائبِ
.....
وَمَا بَلَغَ المَرْمَى البَعيدَ سوَى امرِئٍ يروح ويغدو عرضةً للجواذبِ

فالحرية تعطي المرء قدرا كبيرا من الحيوية والنشاط في سبيل الوصول إلى غاية متوخاة أو درجة أفضل في مراحل الحياة.

وبناءً على ما مضى من تجليات النزوع الذاتي، نستطيع القول إن الذات الشاعرة عندما تداهمها التجربة وتنفذ إلى دواخلها، سوف تلجأ هذه الذات إلى التعبير الذي تتجلى فيه تجربتها، وأن مثل هذه التجليات هي الأقرب إلى فن الشعر؛ لأنها ليست موضوعات أو أغراضا متوارثة، وإنما هي حاجة تنبع من صميم ذات الشاعر، فيستجيب لها بوحي من عواطفه ووجدانه.

وفي مصر بدا كل شيء للمتنبي مصطبغا بمأساته، وأصبح يسقط هذه المأساة على ما يمر به، فعندما أصيب بالحمى، لم تكن الإصابة في جسده فحسب وإنما انتقل أثر الإصابة إلى نفسه ووجدانه ((فهو مأخوذ حسا ومعنى بهاجس الدفاع عن وجوده إنسانا كما هو مأخوذ بتحمل آلام الحمى وتداعياتها))(72)، لذلك لم يكن إحساس المتنبي الشديد بالألم ناتجا من الإصابة بالحمى فحسب وإنما كان بسبب من الظرف القاسي الذي جاءته فيه تلك الحمى. وفي ضوء ذلك يمكن أن نفهم تلك القصيدة التي منها قوله(73):

أبِنْتَ الدّهْرِ عِندي كُلُّ بِنْتٍ ... فكَيفَ وَصَلْتِ أنتِ مِنَ الزّحامِ
جَرَحْتِ مُجَرَّحاً لم يَبقَ فيهِ ... مَكانٌ للسّيُوفِ وَلا السّهَامِ
....
وَضَاقَت خُطّةٌ فَخَلَصْتُ مِنها
وَفَارقْتُ الحَبيبَ بِلا وَداعٍ ... خَلاصَ الخَمرِ مِن نَسجِ الفِدامِ
وَوَدّعْتُ البِلادَ بِلا سَلامِ

ويبدو أن بيت القصيد في هذه القصيدة هو قوله (أبنت الدهر عندي...) لأنه يمثل مرتكز الرؤية فيها فالشاعر يعيش حالا تتكالب عليه شتى ألوان المآسي والهموم فيحسُّ بضيق شديد، وفي هذه الحال أصابته تلك الحمى، وتعد هذه القصيدة ((من أرق الشعر العربي كله وأعذبه وأرقاه وأشده استثارة للحزن وتحريقا للقلوب الحساسة الشاعرة))(74)، لأن الشاعر قد تعمق فيها في أحوال نفسه ونزع إلى ذاته التي أضنتها النوائب. وكثرة الجروح، وهو إن استطاع الخلاص من ضيق الحال التي كان فيها، فإن الأمر غير مصحوب بوداع أو سلام.

وعلى أية حال فقد كان لمصر أثر كبير في إكساب الذات الشاعرة الحزينة عند أبي الطيب سمات مهمة أسهمت في وصول شعره في مصر إلى مستويات عالية جدا، ومن أهم هذه السمات التعمق في أمور النفس، والانطواء عليها. إذ نلحظ أبا الطيب قد ركن إلى نقد الذات، ومحاكمتها وكثرة الصراعات الذاتية في خطابه، يضاف إلى تفجر وعي الشاعر والتأملات البعيدة التي قد

تصل إلى مصاف الفلسفة، الأمر الذي أدى إلى تميز هذا الشعر بالخصب وكثرة الدلالة والاستقصاء، والتعبير الصادق عن النفس وآلامها وما يتصل بها من انفعالات، ومن ذلك قوة الناحية الغنائية الحزينة التي لم تخلُ منها قصيدة.

على أن لهذه السمات والخصائص أسبابا، مهدت لها إقامة الشاعر في مصر ومن أهم هذه الأسباب:

1. كثرة تفكير الشاعر بالطور السابق وهو إقامته عند سيف الدولة والفرق الشاسع بين الحالين.

2. الشعور بأن كافورا كان يتخذ أبا الطيب جسرا يصل بشعره إلى حيث الشهرة وقد عبر المتنبي عن ذلك قائلا(75):

جَوْعــانُ يأكُــلُ مِــنْ زادي وَيُمسِــكني لكَــيْ يُقــالَ: عَظــيمُ القَــدرِ مَقْصُــودُ

3. الإحساس بخيبة الأمل، لأن الشاعر كان ينتظر الوفاء بالوعد من كافور لكنه رأى أنه لن يظفر بشيء منه.

4. الشاعر في هذه المرحلة قد فرغ لنفسه بعد أن كان منشغلا بأحداث أخرى.

5. ثمة شيء تحطم في نفس الشاعر بسبب من شعوره أنه أصبح في وضع يشبه الأسير فقد ضربت حوله مراقبة شديدة وأرصدت له العيون.

ولم يكن حزن أبي فراس بأقل حدة ولا أدنى شدة من حزن أبي الطيب إن لم يفقه. فقد عانت ذات أبي فراس حزنا عميقا وأسى كبيرا، ولا سيما في مرحلة أسره، وكان الشعر متلبسا بتجربة الأسر كاشفا عما يصطرع في أعماق الشاعر الأسير من زفرات تقض المضاجع ولواعج يصطلي بها الفؤاد وآلام لا تطاق.

لذا كانت روميات أبي فراس الحمداني . وهي شعره في الأسر . نزوعا إلى ذاته الحزينة وبوحا بدواخله التي فاضت بالألم، فلم يستطع أن يخفي حزنه أو يكتم بوحه بل ترك الشعر يكشف عما يحس به من أسى يقول(76):

جِــرَاحٌ تحَامَاهــا الأُسَــاةُ مَخوفَــةٌ وســقمانِ بــادٍ منهمــا ودخيــلُ
وأســرٌ أقاســيهِ وليــلٌ نجومــهُ أرَى كُــلّ شَــيْءٍ غَيــرَهُنّ يَــزُولُ
تطــولُ بــي الســاعاتُ وهــي قصــيرة وفــي كــلِّ دهــرٍ لا يســرّكَ طــولُ
تَنَاسَــانيَ الأصْــحَابُ إلاّ عُصَــيْبَةً ســتلحقُ بــالأخرى غــداً وتحــولُ

فجراحه طرازٌ خاص يعجز بإزائها الأطباء، وداؤه ليس فيما يبدو عليه فحسب، وإنما ثمة داء دفين في أعماقه يمثل محور آلامه، فأسره قاس وليله طويل وساعاته ليست كساعات الناس؛ لأنها لا تقترن بسرور أو بمخاض حيوي يبعد حال الخمول التي لم يعتد عليها، وهو الفارس الشجاع ذو الهمة العالية والنفس الكبيرة، يعز عليه أن يصبح في طور النسيان بسبب من جحود الأصحاب وتناسيهم لشخصه في أثناء محنة الأسر.

ولعل ما زاد في معاناته وأذكى شواظ قلبه الملتهب إحساسه الخاص تجاه والدته التي آلمها فراقه، فقد كان أبو فراس دائم الذكر لها في قصائده، وعندما بلغه أن أمه ذهبت من منبج إلى حلب تكلم سيف الدولة في المفاداة وقد ردها خائبة، أثّر ذلك فيه كثيرا فبعث إليه قصيدة يقول فيها(77):

يَـــا حَسْـــرَةً مَـــا أكَـــادُ أحْمِلُهَـــا ... آخِرُهَـــــا مُـــــزْعِجٌ وَأوّلُهَـــــا
عليلـــــةٌ بالشـــــآمِ مفـــــردةٌ ... بـــــاتَ بأيـــــدي العـــــدا معللهـــــا
تمســـكُ أحشـــاءها علـــى حـــرقٍ ... تطفئهـــــا والهمـــــوم تُشْـــــعلُهَا
إذا اطمأنـــتْ وأيـــنَ ؟ أوْ هـــدأتْ ... عَنّـــتْ لَهَـــا ذُكْـــرَةٌ تُقَلْقِلُهَـــا
تســـألُ عنـــا الركبـــانَ جاهـــدةً ... بـــأدمعٍ مـــا تكـــادُ تمهلهـــا
يـــا مـــنْ رأى لـــي بحصـــنِ خرشـــنةٍ ... أســـدَ شـــرى فـــي القيـــودِ أرجلهـــا
يـــا مـــنْ رأى لـــي الـــدروبَ شـــامخةً ... دونَ لقـــاءِ الحبيـــبِ أطولهـــا
يـــا مـــنْ رأى لـــي القيـــودَ موثقـــةً ... علـــى حبيـــبِ الفـــؤادِ أثقلهـــا

إن هذه الأبيات تكشف عن آلام جمة قد عانت منها الذات الشاعرة وهي في قفص الأسر، بسبب من جوانب كثيرة لعل من أهمها ترك الشاعر الأسير لأم عليلة مفردة لا يقر لها قرار طالما هو بعيد عنها، فهو وحيدها الذي يبعد عنها الهموم، ويسكن لها النفس. هذه المشاعر كانت كامنة في ذات الشاعر ولكن ما أثارها وأذكاها ما بلغه من رد سيف الدولة لطلب والدة الشاعر بسرعة المفاداة يقول(78):

بـــأيِّ عـــذرٍ رددتَ والهـــةً ... عَلَيْـــكَ دُونَ الـــوَرَى مُعَوَّلُهَـــا
جَاءتْـــكَ تَمتَـــاحُ رَدّ وَاحِـــدِهَا ... ينتظـــرُ النـــاسُ كيـــفَ تُغفلُهـــا

وتستمر القصيدة في تلقائية عجيبة تعبر عما يحسه الشاعر تجاه الحال التي أصبح فيها، وكذلك الحال التي أصبحت فيها أمه، وتأخر سيف الدولة في المفاداة. والشاعر في هذه القصيدة يؤكد أنه قد وُضِعَ في وضعٍ لا يناسبه البتة، فهو أسد شرس يضيق ذرعا بالقيود، ويبذل المستحيل في سبيل الوصول إلى ما يريد.

على أن أبا فراس ذو نفس كبيرة وكبرياء عالية، ليس بهينٍ عليه أن يظهر حزنه ويعلن عن أساه، فهو القائل(79):

إذا الليلُ أضواني بسطتُ يدَ الهوى وأذللتُ دمعاً مِنْ خلائقِهِ الكِبرُ

ولكن طول مدة الأسر وقساوته، وما اكتنفته من أحوال جعلت أبا فراس في أحايين كثيرة . ينفض عن جسده ثوب الصبر، يقول في أبيات كتبها لأخيه أبي الهيجاء سعيد بن حمدان(80):

تُقِـــرّ دُمُـــوعي بِشَـــوْقي إلَيْـــكَ ويشـــهدُ قلبـــي بطـــولِ الكـــربْ
وإنـــي لَمُجْتَهِـــدٌ فـــي الجُحُـــودِ وَلَكِـــنّ نَفْسِـــيَ تَـــأبَى الكَـــذِبْ
وَإنـــي عَلَيْـــكَ لجَـــارِي الـــدّمُوعِ وَإنـــي عَلَيْـــكَ لَصَـــبٌّ وَصِـــبْ

إذن الكرب والدموع الصبابة تملأ حياة أبي فراس في الأسر وقد ملأت أبياته أيضا وهذا ما لا سبيل إلى جحوده أو كتمانه لأنه إحساس جارف غمر ذات الشاعر فعبر عنه بكل صدق.

أما الشريف الرضي فقد كان شاعرا مرهف الحس إلى حد كبير، عانى في حياته كثيرا من أزمات الوجدان، وضاق بالواقع وكان يبحث عن واقع آخر يتخلص به من الآلام التي يعانيها والمتاعب التي يكابدها، ولكن هيهات ذلك فالأيام هي الغالبة، يقول(81):

تجـــاذبني يـــدُ الأيـــامِ نفسِـــي ويُوشـــكُ أن يكـــونَ لهـــا الغـــلابُ

وهذا الشعور يزيد من إحساس الشاعر بأن همه الذاتي في حال تصاعد واتقاد فيتساءل تساؤلا وجدانيا بنبرة حرى قائلا(82):

مـــــا للهمـــــومِ كأنَّهـــــا نـــــارٌ علـــــى قلبـــــي تُشَـــــبُّ

إنه يعجب من شدة همومه، التي تشبه ناراً تكوى بها ذاته حتى ليمكن أن تصبح ذاته . بفعل اكتوائها المستمر . مصدرا للاقتداح، يقول(83):

يـــــا قادحـــــاً بالزّنـــــادِ مُـــــرْ فاقْتَـــــدِحْ بِفُـــــؤادِي
نـــارُ الغضـــا دونَ نـــارِ الـــ قلـــــــــوبِ والأكبـــــــــادِ

إن الشاعر . الشريف الرضي . صادق فيما يحس به، فهو يحس بقلبه وكبده يتلظى بنار هي أشد من نار الغضا، وأكثر إيلاما لذلك يدعو للاقتداح بها لمن رام الزناد.

ويرى الشريف الرضي أن صروف الدهر سبب في إذكاء معاناته. وفي ذلك يقول(84):

كـــأنّي إذا جادلـــتُ دونَ مطـــالبي أُجَـــادِلُ لِلأيّـــامِ ألْسِـــنَةً لُـــدّا

أحـــلُّ عقـــودَ النائبـــاتِ وانثنـــي وَخَلفـــي يَـــدٌ للـــدّهْرِ تُحكِمُهـــا عَقـــدَا

كأنه لا يد له في إحداث هذه النوائب التي تأتي بالهموم ويؤكد هذا المعنى في قوله(85):

وجـــرى الزّمـــانُ علـــى عوائـــدِ كيـــدهِ فـــي قلـــبِ آمـــالي وعَكْـــسِ رجـــائِي

فهو يأمل ويرجو ولكن للزمان رأيا آخر يقوض تلك الآمال، الأمر الذي يجعل الشاعر في حيرة وذهول، سرعان ما تتحول إلى حسرة ومرارة، وهذا لا يقدح بإقرار الشريف الرضي بالقدر، ولكن هذا الإقرار لا يحول دون الإحساس بالأسى، أو سريان المرارة إلى أعماق الذات، ما يجعل الحياة برمتها عناء دائما وتعبا كبيرا.

وثمة ظاهرة بارزة في حياة الشريف الرضي، وجدت طريقها إلى شعره ولاسيما نزوعه الذاتي إلى الأسى والحزن في ذلك الشعر، تلك الظاهرة هي تبكير ظهور الشيب عنده؛ إذ مثل ذلك له علامة بارزة من علامات الجدب والضعف والشؤم، وقد رسخت صورة الشيب والمشيب في ذهنه فأكثر من الحديث عنهما، فحين كان في الثالثة والعشرين من عمره رأى في شعر رأسه طاقات بياض فقال(86):

عَجلـــتَ يـــا شـــيبُ علـــى مَفْرِقِـــي وَأيُّ عُـــــذْرٍ لَـــــكَ أنْ تَعْجَـــــلا
وَكيـــفَ أقـــدمتَ علـــى عـــارضٍ مَـــا اســـتغرقَ الشَّـــعرَ ولا اســـتكملا
كُنـــتُ أرَى العِشـــرِينَ لـــي جُنّـــةً مِـــنْ طـــارقِ الشّـــيبِ إذا أقـــبلا
....
يـــا ذابـــلاً صـــوَّحَ فينانـــهُ قَـــدْ آنَ لِلـــذّابِلِ أنْ يُخْتَلَـــى
حَـــطّ بِرَأسِـــي يَقَقـــاً أبْيَضـــاً كَأنّمَـــا حَـــطّ بِـــهِ مُنْصُـــلا

فالشاعر في حال ذهول من قدوم هذا الطارق المزعج في غير أوانه، إذ كان يؤمل بأن ريعان الشباب وسنواته الثلاث والعشرين درع واقية له عن ظهور الشيب الذي هو بمثابة السيف الذي يفتك بالرأس بحسب ما يرى الشاعر.

ومما تجدر الاشارة إليه هنا ((أن عوامل الشيب المبكر قائمة في رقة الذات الناصعة التي كانت مطوقة بالاجحاف والظلم والغدر))(87). وهذا ما كانت عليه ذات الشريف الرضي التي انمازت برهافة الإحساس وقساوة المحيط، وقد كان الشريف الرضي يعد ظهور الشيب المبكر وداعا

لمرحلة الشباب، الأمر الذي ضاعف من همومه وآلامه التي تأتيه بها الليالي من كل صوب، يقول(88):

قُــلْ لليّــالي قَــدْ ملكــتِ فأَسْــجحِي   وَلِغَيــــرِكِ الخُلُــــقُ الكَــــرِيمُ الأســـــجَحُ
مِـنْ أيّ خَطْـبٍ مـن خطوبـكِ اشـتكي   وَعَــنَ أيّ ذَنْـــبٍ مـــن ذُنوبِـــكِ أصْـــفحُ
إنْ أشْــكُ فِعلَــكِ مِــنْ فِـراقِ أحبَّتــي   فَلَســـوءُ فِعلـــكِ فـــي عِـــذاري أَقــبَحُ
ضَـــوءٌ تشعشـــعَ فـــي ســـوادِ ذوائبـــي   لا أسْتَضِـــــيءُ بِـــــهِ وَلا أستَصْـــــبِحُ
بعــثُ الشّــبابَ بــهِ علــى مِقَــةٍ لَــهُ   بَيْـــــعَ العَلِــــيمِ بأنَّـــــهُ لا يَـــــرْبَحُ

إن الشاعر يتألم من شيبه المبكر أكثر من آلامه من حوادث الليالي الأخرى ونوائب الزمن التي ألمت به. وما لابد من الالتفات إليه هنا أن ذكر الشيب في الشعر العربي قديم يرجع إلى قدم الشعر العربي نفسه ولكن مزية الشريف الرضي هنا تكمن في جانبين هما:

1. أن الشريف الرضي قد أصيب . فعلا . بشيب كثيف مبكر؛ لذلك انطلق في خطابه الشعري من شأنه الخاص ونزع إلى ما عانته ذاته، وعبر عما اصطلى بناره، وهذا يعني أن الشاعر هنا لم يذكر الشيب تقليدا للآخرين أو مجاراة لأمر خارج الذات الشاعرة.

2. أن الشريف الرضي قد أكثر من ذكر الشيب؛ إذ يمكن القول انه ابرز الشعراء العرب ذكرا للشيب وأشدهم وصفا لآثاره وما يتمخض عنه.

رابعا : الذات الثائرة :

إن الشخصية الإنسانية بحاجة في كثير من المواقف إلى قوة بأس، ونفس ثائرة كي تثبت أقدامها وتعلن حضورها، وقد ورد في الحديث النبوي الشريف ((المؤمن القوي خير من المؤمن الضعيف))(89)، لأن هذه القوة تعزز الشخصية وتعمق الحضور الذاتي لها، وتجعلها في مأمن من محاولات التجاوز أو اخطار العدوان، يقول اريك فروم ((لكي لا يصبح المرء ضحية للعدوان فلابد من أن تسعى نفسه للقوة))(90)،التي هي ركيزة أساس للذات الثائرة.

إن تجليات هذه الذات لا تقف عند الثورة في الأطر السياسية والعسكرية وما يتعلق بهما، بل يتعدى ذلك إلى ما هو أهم وأعمق ونعني بذلك الثورة على الأشكال والقوالب والنظم البالية في مختلف نواحي الحياة؛ لأن الذات المبدعة لا تقف ثورتها عند جانب محدد بل تنطلق في أفق الحياة بكل ما تشتمل عليه.

ولقد زخر القرن الرابع الهجري بذوات شعرية ثائرة لم تستطع تحمل كثير مما كان يسود الشأن العام من أحوال ويكتنف الحياة من أمور ترسخت بفعل الزمن وسيطرة أصحاب النفوذ، ومصالح الخاصة المترتبة على بقاء مجمل جوانب الحياة على وتيرة واحدة. وما من شك في أن أبا

الطيب المتنبي الشاعر الأبرز في النزوع إلى الذات الثائرة التي تأبى الهوان والضعف وتدعو بكل قوة وباس إلى قيم البطولة والشجاعة، ولعل كون المتنبي ثائرا منذ صباه هي من أهم تجليات نزوعه الذاتي، وهنا يجب تأكيد مزية مهمة في ذات المتنبي الثائرة هي ((أن القوة التي يتغنى بها المتنبي ليست قوة الساعد ومضاء السيف فحسب، وإنما هي قبل كل شيء قوة في النفس... وقوة أمام الحياة بكل مخاطرها ومصائبها وقوة في احتمال الألم وقوة أمام الموت))(91)، وهذا نابع من إحساس أصيل لا مجرد زعم وادعاء.

إن نزوع المتنبي إلى مبدأ القوة والوثوب ظاهرةٌ طغت على شعره منذ مطلع شبابه، لقد كان يقول ولما يبلغ العشرين من عمره(92):

لَـيسَ التّعَلّـلُ بالآمَـالِ مِـن أرَبـي ... وَلا القَناعَـةُ بـالإقْلالِ مـن شِـيَمي

.....

رِدِي حِياضَ الرّدى يا نفسُ وَاتّركي ... حياضَ خـوْفِ الـرّدى للشّـاء والـنَّعَمِ

فالحياة عنده سعي ثوري دائب لا يعرف القناعة أو الاعتماد على الاماني والآمال، وإنما التضحية بالنفس وترك العجز والضعف لمن لا يستاهلون السمة الإنسانية، والشاعر لا يعتمد هذا المبدأ فحسب بل هو يدعو . منذ صباه . إلى حياة العز مهما كانت التضحيات يقول(93):

عِـشْ عزيـزاً أوْ مُـتْ وَأنـتَ كَـرِيمٌ ... بَـينَ طَعْـنِ القَنَـا وَخَفْـقِ البُنُـودِ

فَـرُؤوسُ الرّمَـاحِ أذْهَـبُ للغَيْـ ... ـظِ وَأشـفَى لِغـلّ صَـدرِ الحَقُـودِ

.....

فاطْلُـبِ العِـزّ فـي لَظَـى وَدَعِ الـذّلْ ... لَ وَلَـوْ كـانَ فـي جِنـانِ الخُلُـودِ

إن أبا الطيب . في هذه الأبيات . يسعى إلى أن يجتث أمراض العجز والضعف والخنوع التي كانت مستشرية في نفوس اغلب الناس، ويحاول أن يقدم الدواء الامثل ومن ثم جاء نداؤه في البيت الأخير ليجسد مرتكز رؤيته التي تهدف إلى تحقيق ذاتية الإنسان، هذه الذاتية التي لا تتحقق بتوخي حياة العبث واللهو وإنما الجد والعزم والقوة يقول(94):

ولا تَحْسَـبَنّ المَجْـدَ زِقّـاً وقَيْنَـةً ... فمـا المَجـدُ إلاّ السّـيفُ والفتكـةُ البِكـرُ

وتَضـريبُ أعنـاقِ المُلـوكِ وأن تُـرَى ... لـكَ الهَبَـواتُ السّـودُ والعسـكرُ المَجْـرُ

تَـداوَلَ سَـمْعَ المَـرْءِ أنْمُلُـهُ العَشـرُ

وتَرْكُـكَ فـي الـدّنْيا دَوِيّـاً كأنّمـا

وقريب من ذلك قوله(95):

أَلَـــذُّ مِـــنَ المُـــدامِ الخَنْـــدَرِيسِ وأحْلـــى مِـــنْ مُعاطـــاةِ الكُـــؤوسِ
مُعاطـــاةُ الصّـــفائِحِ والعَـــوَالي وإقْحـــامي خَميســـاً فـــي خَمـــيسِ

فالحرب عنده ألذ من مجالس الشراب ويبدو أن هذا الأمر . أي الشغف بالسلاح والقتال . هو الذي حدا بالدكتور طه حسين إلى أن يعلل ذلك بأن المتنبي قد تأثر القرامطة(96). وهذا ما لا يتفق معه البحث، لأن رؤية المتنبي قد أملتها بنيته النفسية وقد تحفزت هذه الرؤية وتطورت بفعل ما وجده في بيئته من نفاذ لمنطق القوة وتراجع وانتكاس للضعف والخمول، وأن المتنبي عندما ينزع إلى مذهب القوة ويؤمن به ويدعو إليه فإنما هي ((القوة الهادفة التي تفترض الخير في طبيعة البشر وتفترض فيهم القدرة على الوصول إلى الكمال))(97)، وليس في الأمر تهور أو انحراف عن جادة الطبيعة الإنسانية.

إن من يمعن النظر في شعر المتنبي ويعي تجربته الشعرية، يرى أنه ينطلق فيها من أعماق ذاته في طلبه القوة ليخلص بوساطتها نفسه من كابوس الظلم(98)، وينشد بها حقه يقول(99):

سَـــأَطلُبُ حَقّـــي بِالقَنـــا وَمَشـــايِخٍ كَـــأَنَّهُمُ مِـــن طـــولِ مـــا اِلتَثَمـــوا مُـــرْدُ

والمتنبي لا يبالي في ما سيؤول إليه أمره عبر تمسكه بهذه النزعة الثائرة، وقد كشف عن ذلك في آخر ما قال من شعر(100):

وَأيـــا شِـــئْتِ يـــا طُرُقـــي فَكُـــوني أذَاةً أوْ نَجَـــــــــاةً أوْ هَلاكَـــــــــا

ولم يخيب القدر ظنه فقد قتل هو وابنه محسد ونفر من غلمانه في دير العاقول بعد عودته من بلاد فارس في سنة 354هـ. وقد كان يردد بيته المشهور(101):

فَالخَيـــلُ وَاللَيـــلُ وَالبَيـــداءُ تَعرِفُنـــي وَالسّـــيفُ وَالـــرُمحُ وَالقِرطـــاسُ وَالقَلَـــمُ

ومما يدل على استمرار توهج ذاته الثائرة وتمسكه بقوته الذاتية العالية ما يورده الثعالبي في أن المتنبي ((لم يقبل ما أشير به عليه من الاحتياط باستصحاب الخفراء))(102)، وذلك في سفره الأخير الذي كان فيه مقتله.

ومن الذوات التي برز فيها الحس الثوري والبعد الحماسي في القرن الرابع الهجري أبو فراس الحمداني الذي وجد ذاته في أجواء الحرب والقتال ولم يجدها في مجالس الشراب واللهو يقول(103):

أحســـــنُ مـــــن قهـــــوةٍ معتَّقـــــةٍ بكـــــفِّ ظبـــــي مقرْطـــــقٍ غـــــنجِ
صـــوتُ قـــراعٍ فـــي وســـطِ معمعـــةٍ قـــد صـــبغَ الأرضَ مِـــنْ دمِ المُهـــجِ

ولعل ما يلفت النظر في هذا الشاعر الفارس أن ذاته الثائرة ازدادت زخما عندما كان في قيد الأسر، ويعلل الدكتور زكي مبارك ذلك بقوله: ((إن النفس تجتر ماضي النعيم في أيام الحرمان، وصور النعيم السالف هي القبس الذي يبدد غياهب البؤس ويمحق ظلمات البأساء وهذه نزعة نفسية))(104)، لذلك كانت روميات أبي فراس ملأى بنزعة ثائرة ومن ذلك قوله(105):

وإنـــــي لجـــــرارٌ لكـــــلِّ كتيبـــــةٍ معـــــودةٍ أنْ لا يخـــــلَّ بهـــــا النّصـــــرُ
وإنـــــي لنـــــزالٌ بكـــــلِّ مخوفـــــةٍ كثيـــــرٌ إلـــــى نزالهـــــا النظـــــرُ الشـــــزرُ
فَأَظمـــأُ حتـــى تَرْتَـــوي البِـــيضُ وَالقَنَـــا وَأَسْـــغَبُ حتـــى يَشـــبَعَ الـــذِّئبُ وَالنّســـرُ

إنه يشمخ بهذه السمات والبطولات التي كان يقوم بها قبل الأسر، وهي ما تزال تجري في دمه وتتواشج مع أنفاسه لذلك تبقى ذاته بإزاء مفارقة ملؤها الذهول؛ لأن هذه الذات اعتادت على الإقدام والاندفاع فكيف بها وقد فرض عليها السكون. وأوصدت بوجهها أبواب التعبير عما يحقق لها ذاتها الثائرة يقول(106):

تَمُـــرُّ اللَيـــالي لَـــيسَ لِلنَفـــعِ مَوضِـــعٌ لَـــــــدَيَّ وَلا لِلمُعتَفـــــــينَ جَنـــــــابُ
وَلا شُـــدَّ لـــي سَـــرجٌ عَلـــى ظَهـــرِ ســـابِحٍ وَلا ضُـــــرِبَت لـــــي بِـــــالعَراءِ قِبـــــابُ
وَلا بَرَقَـــت لـــي فـــي اللِقـــاءِ قَواطِـــعٌ وَلا لَمَعَـــت لِـــي فـــي الحُـــروبِ حِـــرَابُ

إن الشاعر هنا يتحسر على فقدان ما يجد فيه ذاته ويثبت كينونته من انجاز لأعمال الخير أو انشغال بما يتصل وأجواء المعارك التي هي طعامه وشرابه يقول(107):

فَـــلا تَصِـــفَنَّ الحَـــربَ عِنـــدي فَإِنَّهـــا طَعـــامِيَ مُـــذ بِعـــتُ الصِـــبا وَشَـــرابي

على أن ثمة مواقف في الأسر كان لذات أبي فراس فيها صوتها المدوي وثورتها المتفجرة، ومن ذلك ثورته في وجه (الدمستق) عندما قال له هذا الأخير: إنما أنتم كتاب أصحاب أقلام، ولستم بأصحاب سيوف ومن أين تعرفون الحروب؟
فثار أبو فراس في وجهه قائلا : نحن نطأ أرضك منذ ستين سنة بالسيوف أم بالأقلام؟ ثم ارتجل قصيدة منها(108):

أَتَـــزعَمُ ياضَـــخمَ اللَغاديـــدِ أَنَّنـــا وَنَحـــنُ أُســـودُ الحَـــربِ لانَعـــرِفُ الحَربـــا
فَوَيلَـكَ مَـن لِلحَـربِ إِن لَـم نَكُـن لَهـا وَمَـن ذا الَّـذي يُمسـي وَيُضـحي لَهـا تِربـا

وَمَـن ذا يَلُـفُّ الجَـيشَ مِـن جَنَباتِـهِ وَمَـن ذا يَقـودُ الشُـمَّ أَو يَصـدُمُ القَلبـا
وَوَيلَـكَ مَـن أَدى أَخـاكَ بِمَـرعَشٍ وَجَلَّـلَ ضَـرباً وَجـهَ والِـدِكَ العَضـبا
وَوَيلَـكَ مَـن خَلّـى اِبـنَ أُختِـكَ موثَقـاً وَخَـلّاكَ بِاللَقّـانِ تَبتَـدِرُ الشَّـعبا

فواضح أن هذه الأبيات إنما تدلل على ذات ثائرة لا تقبل التراجع أو الانتكاس على الرغم من أنها في أشد الظورف حرجا وضيقا، فارتفع صوتها الثائر من بين أغلال الأسر وقيوده.

وللشريف الرضي مساحة واسعة من تجليات ذاته الثائرة، التي لم تمنع مكانتها الكبيرة في مجالات متنوعة من أن تعلن رفضها وثورتها على كثير مما كان سائدا آنذاك. لقد كانت ذات الشاعر الرضي على قدر من الوجدان المتحفز والثورة الساخطة تجاه عصر اضطربت فيه المقاييس الاجتماعية وعبثت به الفوضى السياسية حتى أصبح المخلصون المتمسكون بالمثل يعيشون في صراع نفسي بين ما يؤمنون به ويتطلعون إليه وبين واقع انهارت فيه القيم وقلبت الموازين(109)، لذا اصطدمت ذات الشاعر بهذا الواقع الاليم فظهرت نزعته الثائرة، وانتقلت إلى شعره إذ نلحظه في أكثر قصائده ثائرا متوثبا، يقول(110):

يـا نَفـسُ مِـن هَـمٍّ إِلـى هِمَّـةٍ فَلَـيسَ مِـن عِـبءِ الأَذى مُسـتَراح
قَـد آنَ لِلقَلـبِ الَّـذي كَـدَّهُ طـولُ مُناجـاةِ المُنـى أَن يُـراح
لا بُـدَّ أَن أَركَبَهـا صَـعبَةً وَقاحَـةً تَحـتَ غُـلامٍ وَقـاح
يُجهِـدُها أَو يَنثَنـي بِـالرَدى دونَ الَّـذي قُـدِّرَ أَو بِالنَجـاح
الـراحُ وَالراحَـةُ ذُلٌّ الفَتـى وَالعِـزُّ فـي شُـربِ ضَـريبِ اللَقـاح
فـي حَيـثُ لا حُكـمَ لِغَيـرِ القَنـا وَلا مُطـاعَ غَيـر داعـي الكِفـاح

فالشاعر هنا يستنهض نفسه ويحثها على استبدال فعلها الثوري باحساسها الحزين ، وأن اختيار المركب الصعب هو ما يجدر به، لأن حياة الدعة لا توصل إلى العز الذي يريد وإنما التعب والكفاح والإقدام هو ما يجدر به.

على أن الشريف الرضي يختلف عن سابقيه . المتنبي وأبي فراس . في أنه لم يعرف عنه المشاركة في القتال واقتحام أتون المعارك مثلما كانت حال المتنبي وأبي فراس، ولكن على الرغم من ذلك فقد ولج الشريف الرضي عالم الشعر بكل حواسه وفي أعماق ذاته ثورة وسخط شديدان، عبّر عنهما في شعره فغدا ذلك الشعر . إلى حد كبير . مرآة صادقة ترتسم فيها صورة نفسه، يقول(111):

وَعِنْـدِي لِلعِـدى لا بُـدَّ يَـومٌ يُـذيقُهُمُ المُسَـمَّمَ مِـن عِقـابي

فَأَنصُـــبُ فَـــوقَ هـــامِهِمُ قُـــدوري وَأَمـــــزُجُ مِـــــن دِمـــــائِهِم شَـــــرابي
وَأُركِـــزُ فـــي قُلـــوبِهِمُ رِمـــاحي وَأَضـــــرِبُ فـــــي دِيـــــارِهِمُ قِبـــابي
فَـــإِن أَهلِـــك فَعَـــن قَـــدرٍ جَـــرِيٍّ وَإِن أَملِـــك فَقَـــد أَغنـــى طِلابـــي

إذن هو ينتظر اليوم الذي يبلي فيه بلاء في أعدائه، ولا تهمه سلامة جسده وإنما المهم سلامة نفسه؛ لأن القتل لا يهلك النفوس والذوات إنما يهلك الأجسام فحسب.

الهوامش

(1) ظ: المعجم الأدبي : 116.
(2) ظ: مشكلة الفن: 42.
(3) ظ: في النقد والأدب: 388/3.
(4) سايكولوجية الإبداع في الفن والحياة: 93.
(5) ظ: علم النفس الاجتماعي، أوتوكلينبرغ: 162- 164.
(6) مفهوم الذات بين الطفولة والمراهقة: 15.
(7) ظ: علم النفس، محمد شريف سليم: 185.
(8) المائدة/54.
(9) ظ: علم النفس، محمد شريف سليم ك 187.
(10) ظ: نقد الشعر في المنظور النفسي: 123.
(11) الاتجاه النفسي في نقد الشعر العربي: 68.
(12) ظ: العمدة :136/2.
(13) ظ: نقد الشعر في المنظور النفسي: 123.
(14) ديوان أبي الطيب المتنبي، تحـ : د. عزام:66.
(15) نقد الشعر في المنظور النفسي:105.
(16) ديوان أبي الطيب المتنبي، تحـ : د. عزام:46.
(17) م.ن:60.ورعان : جمع رعن وهو أنف الجبل الشاخص منه. ظ: المعجم الوسيط : مادة رَعَنَ
(18) م.ن:76.
(19) م.ن:66.
(20) م.ن:270.

(21) م.ن: 228.

(22) م.ن: 270.

(23) م.ن:66.

(24) ديوان أبي فراس الحمداني، تحـ د. سامي الدهان: 77.

(25) م.ن: 219. واللهنة : الطعام الذي يتعلل به قبل الغداء، ظ: المعجم الوسيط : لَهُنَ.

(26) م.ن: 87.

(27) م.ن: 225.

(28) م.ن: 84.

(29) ديوان الشريف الرضي، تحـ : د. محمد مصطفى حلاوي: 1/ 189.

(30) ديوان أبي الطيب المتنبي تحـ: د. عزام: 271.

(31) ديوان الشريف الرضي، تحـ : د. محمود مصطفى حلاوي: 154/2.

(32) م.ن: 13/2.

(33) م.ن:153/2.

(34) ظ: لسان العرب : مادة غَرُبَ.

(35) ظ: الاغتراب، شاخت : 16.

(36) المعجم الأدبي: 64.

(37) ظ: الحنين والغربة في الشعر العربي: 16.

(38) خصام ونقد :44.

(39) علم النفس والأدب، سامي الدروبي: 263.

(40) الزمان والمكان في شعر المتنبي : 191- 192.

(41) ديوان أبي الطيب المتنبي، تحـ: د. عزام: 107.

(42) م.ن: 51-52.

(43) الرفض ومعانيه في شعر المتنبي : 220.

(44) ديوان أبي الطيب المتنبي، تحـ: د. عزام: 379.

(45) م.ن: 372-373.

(46) الإشارات الإلهية : 115.

(47) ديوان أبي الطيب المتنبي، تحـ: د. عزام: 385.

(48) ديوان أبي فراس الحمداني، تحـ :د. سامي الدهان: 48.

(49) م.ن: 139- 194.

(50) م.ن: 30.

(51) ظ: صورة الذات بين أبي فراس الحمداني ومحمود سامي البارودي: 144.

(52) الصداقة والصديق: 12.

(53) ديوان الشريف الرضي تحـ : محمود مصطفى حلاوي: 547/1.

(54) م.ن: 453/2.

(55) م.ن: 259/1.

(56) م.ن: 662/1.

(57) ظ: مقال في طبيعة الشعر: 206.

(58) ما الشعر، أرسطو، ترجمة بدوي: 47.

(59) ديوان أبي الطيب المتبني، تحـ : د. عزام : 48.

(60) م.ن: 148.

(61) م.ن: 134.

(62) م.ن:221.

(63) م.ن: 352.

(64) نقد الشعر في المنظور النفسي: 99.

(65) لغة الحب في شعر المتنبي : 250.

(66) ديوان أبي الطيب المتبني، تحـ : د. عزام : 372.

(67) م.ن:374.

(68) م.ن: 373.

(69) م.ن: 374.

(70) م.ن: 374.

(71) ديوان الشريف الرضي، تحـ: د. محمود مصطفى حلاوي: 144/1- 145.

(72) علم المعنى: 91.

(73) ديوان أبي الطيب المتنبي، تحـ: د. عزام: 379.

(74) مع المتنبي: 319.

(75) ديوان أبي الطيب المتنبي، تحـ : د. عزام:386.

(76) ديوان أبي فراس الحمداني تحـ : د. سامي الدهان: 182.

(77) م.ن: 178.

(78) م.ن: 180.

(79) م.ن: 84.

(80) م.ن: 43.

(81) ديوان الشريف الرضي، تحـ : د. محمود حلاوي: 186/1.

(82) م.ن:238/1.

(83) م.ن:447/1.

(84) م.ن: 439/1- 440.

(85) م.ن: 74/1.

(86) م.ن: 194/2.

(87) الاغتراب في حياة وشعر الشريف الرضي: 147.

(88) ديوان الشريف الرضي، تحـ : د. محمود حلاوي: 320/1.

(89) صحيح مسلم: 56/8.

(90) الإنسان بين المظهر والجواهر: 121.

(91) الموسوعة الأدبية الميسرة، المتنبي، خليل شرف الدين: 141.

(92) ديوان أبي الطيب المتنبي، تحـ : د. عزام : 64.

(93) م.ن: 52.

(94) م.ن: 166.

(95) م.ن: 77.

(96) ظ: مع المتنبي: 90.

(97) المتنبي بين ناقديه: 421.

(98) ظ: المتنبي بين الثورة والاغتراب: 259.

(99) ديوان المتنبي، تحـ : د.عزام:172.

(100) م.ن: 454.

(101) م.ن: 174.

(102) يتيمة الدهر: 240/1.

(103) ديوان أبي فراس الحمداني تحـ : د. سامي الدهان: 54.

(104) الموازنة بين الشعراء: 112.

(105) ديوان أبي فراس الحمداني، تحـ:سامي الدهان: 86.

(106) م.ن: 86.

(107) م.ن: 28-29.

(108) م.ن:40.

(109) ظ: الحماسة الشريف الرضي:35.

(110) ديوان الشريف الرضي، تحـ: د. محمود حلاوي: 1/ 317- 318.

(111) م.ن: 1/ 216.

المصادرُ والمراجعُ

- القرآن الكريم
- الاتجاه النفسي في نقد الشعر العربي ، د. عبد القادر فيدوح، اتحاد الكتاب العربي ، دمشق ، 1992م.
- الإشارات الإلهية، أبو حيان التوحيدي (410هـ)، تحـ: عبد الرحمن بدوي، دار العلم، بيروت، ط1، 1981م.
- الاغتراب ، شاخت ، تر: كامل يوسف حسين ، المؤسسة العربية ، بيروت ، ط1، 1980م.
- . الاغتراب في حياة وشعر الشريف الرضي، عزيز السيد جاسم ، دار الأندلس ، بيروت . لبنان، (د.ت).
- الإنسان بين الجوهر والمظهر ، أريك فروم ، تر سعد زهران ، عالم المعرفة ، الكويت ، 1989م.
- الحماسة في شعر الشريف الرضي، محمد جميل شلش، المكتبة العالمية، بغداد، ط2، 1985.
- الحنين والغربة في الشعر العربي ، د. يحيى الجبوري ، دار مجد لاوي، عمان . الأردن، ط1، 1428هـ . 2008م.
- خصام ونقد ، د. طه حسين ، دار العلم للملايين ، بيروت ، ط1، 1955م.
- ديوان أبي الطيب المتنبي ، تحـ : د. عبد الوهاب عزام، دار الاهزاء، بيروت ، 1978م.

- ديوان أبـي فراس الحمداني ، روايـة ابن خالويـه ، تحـ د. سامي الدهان ، ووزارة الثقافـة ، دمشق . سوريا ، ط1، 2004م.
- ديوان الشريف الرضـي، تحـ : د. محمود مصطفى حـلاوي ، دار الأرقم بن أبـي الأرقم ، بيروت . لبنان ، ط1، 1419هـ . 1999م.
- الـرفض ومعانيـه فـي شـعر المتنبـي ، يوسف الحنّاشـي ، الـدار العربيـة للكتـاب ، تـونس ، 1404. 1984م.
- الزمـان والمكـان فـي شـعر المتنبـي ، د. حيدر لازم مطلك. دار صـفاء ، عمـان . الأردن ، ط1، 1431هـ . 2010م.
- سيكولوجيا الإبداع في الفن والأدب ، يوسف ميخائيل أسعد ، دار الشؤون الثقافية العامة، بغداد ، العراق، 1984م.
- صـحيح مسلم ، الإمام مسلم (ت: 261هـ) ، تحـ : محمود فؤاد عبد الباقي، دار الحديث القاهرة ، (د.ت).
- صورة الذات بين أبي فراس ومحمود سامي البارودي ، دراسة موازنـة، د. ياسر علي عبد سلمان، دار نينوى ، سوريا ، ط1، 1429هـ . 2008م.
- علم المعنى ، د. رحمن غركان ، دار الرائي ، دمشق . سوريا ، ط1، 2008م.
- علم النفس ، محمد شريف سليم، المطبعة الاميرية ، القاهرة، 1914م.
- علـم الـنفس الاجتمـاعي ، راد نـوكلنيبرغ ، تـر: حـافظ الجمـالي ، مكتبـة الحيـاة ، بيـروت ، ط2، 1967م.
- فن الشعر، أرسطو ، تر : د. عبد الرحمن بدوي، دار الثقافة ، بيروت ، ط2، 1983م.
- في النقد الأدبي ، د. عبد العزيز عتيق ، دار النهضة العربية، بيروت ، 1971م.
- لغـة الحـب فـي شـعر المتنبـي، د. عبـد الفتـاح صـالح نـافع ، دار الفكـر، عمـان . الاردن ، ط1، 1403. 1983م.
- المتنبـي بـين ناقديـه فـي القـديم والحـديث، د. محمـد عبـد الـرحمن شـعيب، دار المعـارف بمصر، ط2، (د.ت).
- مشكلة الفن، د. زكريا إبراهيم ، دار مصر، للطباعة، القاهرة ، 1976م.
- المعجم الأدبي ، جبور عبد النور ، دار العلم للملايين ، بيروت ، ط1، 1979م.
- مع المتنبي ، د. طه حسين ، دار المعارف بمصر ، ط13، 1986م.
- مفهوم الذات بين الطفولة والمراهقة، د. وعد الشيخ، دار كيوان ، دمشق ، ط1، 2006م.

- مقال في طبيعة الشعر ، ت . س إليوت الشاعر الناقد) ، ف. أ. ماثيسن، تر. د. إحسان عباس، المكتبة العصرية ، بيروت ، 1965.
- نقد الشعر في المنظور النفسي ، د. ريكان إبراهيم ، دار الشؤون الثقافية العامة ، بغداد ، ط1، 1989م.
- يتيمة الدهر في محاسن أهل العصر، أبو منصور الثعالبي، (429هـ) ، تحـ محمد محيي الدين عبد الحميد ، مطبعة السعادة ، القاهرة ، ط2، 1375هـ . 1956م.